الفصل الثانى

الطباعة فى أوروبا

(البداية الحقيقية لفن الطباعة الحديثة)

قامت الطباعة في أوروبا الغربية نتيجة للتقدم التكنولوجى الذي سرعان ما تجاوز أهدافه الأولى ليُحدث تحولات هائلة في حضارة مكتملة المعالم، كما يرجع نجاح الطباعة إلى ازدياد الطلب في المجتمعات الأوروبية على النصوص المكتوبة.

والحقيقة أن فائدة الكتابة صارت أمرًا واضحًا منذ القرن الحادي عشر؛ وذلك لمواكبة النشاط التجارى المتزايد والحركة الثقافية المتنامية، إلى جانب نمو المدن الكبيرة والصغيرة. لقد تضافرت هذه العوامل مجتمعة في ازدياد الطلب على الكتب والوثائق المتصلة بأمور الحياة العملية، بل إن الكتابة أصبحت تشغل بال المجتمع في تصريف حياته اليومية بداية من القرن الثالث عشر،[13] لذلك برزت في أوروبا مشكلة تلبية الطلبات المتزايدة على الكتاب مع تزايد عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في المدن والجامعات، وحين أثار اكتشاف المخطوطات اهتمام المتعلمين زاد بدوره من الطلب على أمثال هذه المؤلفات، كما أصبح الكتاب بشكل عام سلعة مطلوبة وأخذ يمارس دورًا كبيرًا أهم بكثير بالمقارنة مع الوقت الذي كان فيه عدد المهتمين بالكتاب قليلًا نسبيًا.

ولهذا كان الأمر يحتاج إلى حل مسألتين أساسيتين: الأولى هي إيجاد مادة جديدة ورخيصة للكتابة، بينما كانت الثانية تنحصر في البحث عن حل تكنولوجى لسرعة

نسخ الكتاب الواحد. وفيما يتعلق بالمسألة الأولى فقد كان الحل قد أنجز من الناحية التكنولوجية بعد أن انتقل إنتاج الورق من البلدان الإسلامية إلى أوروبا.

ولكن مادام إنتاج الورق محدودًا نسبيًّا فقد كان من الصعب أن يلعب الورق هنا دورًا أكبر وأن ينهى استعمال الرَّق كمادة للكتابة، إلا أن الورق أخذ يُنتج بكميات كبيرة منذ نهاية القرن الرابع عشر، وخاصة خلال القرن الخامس عشر، بحيث لم يعد الورق يمثل عقبة لإنتاج أكبر وأضخم، أما المسألة الأخرى، وهي سرعة نسخ الكتاب بشكل ميكانيكى، فقد حُلَّت أخيرًا في منتصف القرن الخامس عشر على يد الألماني يوهانس جوتنبرج.

الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر

فى نهاية القرن التاسع عشر اكتشفت بالقرب من الفيوم نصوص حوالي خمسين كتابًا تم إنتاجها بواسطة الطباعة بالقوالب الخشبية خلال سنوات 900م - 1350م، وكانت هذه الكتب جميعها دون استثناء مكتوبة باللغة العربية وتتناول موضوعات دينية، وأكثرها الآن محفوظ في المكتبة الوطنية في فيينا وجزء منها موزع في بقية المكتبات الأوروبية، وليس من السهل هنا تفسير ظهور هذه الكتب المطبوعة في إطار حضارة كانت ترفض طبع الكتب الدينية بوسائل ميكانيكية.

ويعتقد هنا بأن إنتاج هذه الكتب كان من قبل الشعب، الذي كان يعتقد بالقوة المؤثرة للكلمة المطبوعة، والذي لم يكن يملك القدرة على شراء المخطوطات بأسعارها العالية في أسواق الوراقين.[14]

هكذا يمكن أن يقال إن الأمر في مصر كما في أوروبا لاحقًا يتعلق بالإنتاج الثقافي الدولى للشرائح الفقيرة، ومن الصعب الاعتقاد بأن إنتاج الكتب على هذا النحو كان بمساعدة أو مباركة رجال الدين، وهم الذين يتخذون موقفًا صارمًا من طبع الكتب المقدسة. وهناك من يعتقد بأن مثل هذه الكتب قد طبعت في البلاد العربية والإسلامية الأخرى، وليس فقط في مصر، ولكن مناخ مصر الجاف هو الذي ساعد على حفظ النصوص التي وجدت.[15]

الكتب المطبوعة بالكتل الخشبية في أوروبا

عرفت أوروبا الطباعة بالكتل الخشبية قبل اختراع الطباعة بالحروف المتحركة بأكثر من نصف قرن، واُستخدمت أول ما استخدمت في طباعة القماش، وقد وصلتنا قطعة قماش يرجح أن تاريخها سنة 1435م، وفى بداية النصف الثاني من القرن العشرين اكتشفت كتلة خشب كانت تستخدم في الطباعة في برجانديا وكان حجمها 24×91/2 بوصة وهو حجم أكبر من مقاس أي ورق كان معروفًا آنذاك، وربما كانت معدة لاستخدامها في طباعة القماش، وعلى هذه الكتلة صورة تخطيطية لعملية الصلب، وثلاثة جنود، وجزء من الصليب، ويبدو أن هذه الكتلة واحدة من عدة كتل معدة لإنتاج صور على ورق أو على قماش لعملية صلب المسيح.[16]

كانت الصور الأولى لاستخدام الكتل الخشبية عبارة عن صور دينية ذات خطوط بسيطة يستخدمها الوعاظ أثناء وعظهم الناس، كما كانت تستخدم لطبع صور المسيح والقديسين لتوزيعها على الناس الذين يرتادون الكنائس والمزارات الدينية، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى طباعة مطويات ذات صور وأيضًا كلمات وجمل بسيطة، وتطور فن الكتل الخشبية بعد ذلك لطباعة كتب بأكملها، وقد عرفت تلك الكتب باسم «كتب الكتل الخشبية»، وكان معظم كتب الكتل الخشبية هذه تطبع على ورق وبحبر سائل، ولم تكن هوامش تلك الكتب تتساوى بسبب عدم السيطرة التامة على إنتاج تلك الكتل.

ويذكر المؤرخون الثقاة أن كتب الكتل الخشبية الباكرة ظهرت في حدود سنة 1450م في هولندا ودول الراين الأسفل، ورغم أن الطباعة بالكتل الخشبية هذه قد سبقت الطباعة بالحروف المتحركة إلا أنها استمرت كما سنرى فيما بعدها بزمان طويل، وقد وصلتنا نماذج من كتب الكتل الخشبية المطبوعة في مطابع الحروف المتحركة وبحبر أسود ومطبوعة من الناحيتين.

كانت كتب الكتل الخشبية عبارة عن نسخ من الصور التي كانت موجودة بالفعل في المخطوطات وكانت عملية طباعتها عملية بدائية، وربما كانت المرسومة بخط اليد أفضل منها كثيرًا، وكانت الصور في الأعم الأغلب عبارة عن خطوط بسيطة دون تظليل أو بالحد الأدنى من الظلال، وعلى الرغم من ذلك فقد وصلتنا كتب ذات صور رائعة وجذابة تنم عن فن أصيل.

لقيت كتب الكتل الخشبية المصورة رواجًا وإقبالًا كبيرًا وكان إنتاجها بأعداد كبيرة على يد فنانين محترفين سواء داخل الأديرة أو خارجها، وعلى الرغم من أن بعض تلك الكتب كان يطبع بكميات كبيرة من النسخ إلا أن ما وصلنا منها كان قليلًا للغاية.

ويقسم نورمان بنز كتب الكتل الخشبية هذه إلى ثلاث فئات رئيسية هي:

1- كتب تشتمل على الصور والنص معًا في الصفحة نفسها، وإن كانت الصورة تشغل الجزء الأكبر من الصفحة.

2- كتب تشتمل على الصورة في صفحة وحدها والنص وحده في الصفحة المقابلة.

3- كتب لا تضم إلا النص فقط دون صور مصاحبة.

ولعل إنجيل الفقراء الذي لم يُعْرف مؤلفه هو خير مثال على الفئة الأولى، وكان الهدف منه تقديم حقائق الكتاب المقدس عن طريق الصور، وتقديم الأحداث الواردة في العهدين القديم والجديد بأسلوب مصور يقربه إلى العامة، وأول طبعة معروفة لدينا من إنجيل الفقراء تقع في أربعين صفحة مصورة على جانب واحد من الصفحة وبحبر بني اللون، والملزمة تتكون من ورقتين فقط ودون ترقيم، وكل صفحة مقسمة إلى تسعة إطارات، خمسة منها تشتمل على الصور وأربعة على النص، والصور الثلاث الرئيسية تأتي وسط الإطارات الخمسة، والصورة الوسطى تمثل مشهدًا من العهد الجديد، بينما الصورتان اللتان على جانبيها تستقيان من العهد القديم، وتدوران حول فكرة صورة الوسط، أما في الإطارين الأول والخامس فإننا نصادف صورتين صغيرتين، أما إطارات النص الأربعة فقد وزعت على الأركان الأربعة للصفحة الواحدة.

وبصفة عامة فإن الصور في هذا الكتاب مرسومة بدقة وبعمق ومليئة بالظلال وتكشف عن أنها من صنع فنان موهوب، وعلى العكس من ذلك يبدو النص في الأركان الأربعة مهزوزًا ومسافات السطور غير مضبوطة وصعبة القراءة.

وهناك عشر طبعات منفصلة من هذا الإنجيل بعضها باللاتينية وبعضها بالألمانية، وقد وصلنا من هذا الكتاب نحو خمسين نسخة كلها مطبوعة على ورق رغم أن نوعية الورق وحجمه

يختلف من نسخة إلى أخرى، ويعتبر هذا الكتاب حلقة وصل بين الطباعة بالكتل الخشبية والكتابة بالحروف المتحركة، حيث طبعت منه سنة 1462م طبعة بالحروف المتحركة.

وعثر أيضًا من هذه الفئة على كتاب «تاريخ إنجيل القديس يوحنا»، ويضم نصًا قصيرًا للغاية وسلسلة من الصور المتعاقبة كل صفحة تستوعب صورتين فقط، ومعظم الصور هنا عبارة عن خطوط بسيطة باللون الأسود وهي مرسومة بطريقة بدائية، وقد طبع من هذا الكتاب ست طبعات على الأقل بطريقة الكتل الخشبية إحداها تشتمل على خمسين ورقة والأخريات على ثمان وأربعين، وكل طبعة تنطوي على ملامح خاصة بما يشي أنها من طبع طابع مختلف.

وربما كان أجمل كتاب في هذه الفئة الأولى هو كتاب «صور العذراء مريم من أغنية الأغاني»، وهو يشتمل على ست عشرة صفحة من القطع الصغير، ومطبوع بالحبر البني على وجه واحد فقط، وكل صفحة تتضمن صورتين فقط إحداهما تحت الأخرى متبوعة بنص شارح باللاتينية في إطار يحيط بالصورة، والصور مفصلة وممتلئة وبها قدر معقول من التظليل، وبصفة عامة فإن هذا الكتاب يكشف عن فنان موهوب وطابع ماهر لأنه أفضل كثيرًا من الكتابين السابقين، وقد وصلنا من هذا الكتاب طبعتان متميزتان.[17]

فإذا انتقلنا إلى الفئة الثانية وجدنا من النماذج الممثلة لها كتاب «كيف تتذكر الإنجيلين؟»، وربما كان هذا الكتاب هو أول كتاب أوروبى مطبوع على كتل خشبية وصلنا، ويقع في ثلاثين صفحة خصصت منها خمس عشرة صفحة للصور وخمس عشرة صفحة للنصوص، وكل صفحة مطبوعة بالحبر البني على جانب واحد فقط، ونُظم الكتاب بحيث تطبع الصورة على صفحة والنص الشارح لها على الصفحة المقابلة، والصور نفسها في غاية الغرابة حيث مُثِّل القديس متى بالملك، والقديس مرقص بالأسد، والقديس لوقا بالثور، والقديس يوحنا بالنسر، وكل صورة تتضمن أشكالًا جانبية رمزية إلى جانب كل منها أرقام كشفية تشير إلى فصول الإنجيل التي اسْتُقيت منها الأحداث المصورة، أما صفحات النص فإنها طبعت بحروف كبيرة بدائية مضغوطة في إطار مسطَّر، وفى هذه الفئة الثانية

أيضًا نصادف كتاب «مرآة الخلاص الإنساني» وهو ثالث أهم كتب هذه الفئة، وقد وصلنا منه حتى الآن أربع طبعات من القطع الصغير، اثنتان باللاتينية واثنتان بالهولندية، الطبعة اللاتينية تشتمل على ثلاث وستين ورقة، بينما الهولندية تشتمل على اثنتين وستين ورقة، وكل هذه الطبعات تفتقر إلى تاريخ الطبع كما تفتقر إلى مكان الطبع واسم الطابع، ويعتقد بعض الثقاة بأن هذا العمل من إنتاج لورنز كوستر من هارلم الذي يقترن اسمه باختراع الطباعة منافسًا ليوهانس جوتنبرج ولكن الدليل على ذلك ضعيف.

فإذا انتقلنا إلى الفئة الثالثة من كتب الكتل الخشبية فسوف نجد على رأسها «كتاب النحو» الذي وضعه إليوس دوناتوس، وكان أوسع كتب النحو اللاتينى انتشارًا في العصور الوسطى، وهو الكتاب الذي يقتصر على النص فقط وقد ظهر الكتاب في طبعتين إحداهما تتألف من 34 صفحة مطبوعة بحروف كبيرة، والثانية في تسع صفحات بحروف صغيرة، وعلى خلاف كتب الكتل الخشبية الأخرى طبع هذا الكتاب في المطبعة وعلى رقٍّ ورق وبالحبر الأسود، وللأسف لم تصلنا من هذا الكتاب أية نسخ كاملة.

كانت طباعة الكتل الخشبية مرهقة للغاية وكان تقطيع الحروف وتصميمها ورسمها على الخشب يحتاج إلى مهارة عالية وكان كل حرف لابد أن يرسم ويقطع مقلوبًا وكانت كتابة وتقطيع الجملة الواحدة تحتاج إلى جهد كبير، ووقت طويل، وتركيز حاد وكانت عرضة للفشل في كثير من الأحيان؛ وربما لذلك السبب كانت كتب الكتل الخشبية لا تشتمل إلا على الحد الأدنى من النص، يضاف إلى ذلك أن النص كان يبقى ثابتًا.

وعندما زاد الطلب على كتب الكتل الخشبية، وتعددت النصوص المراد طباعتها، كان ذلك دافعًا للطابعين إلى البحث عن طريقة أسهل في طباعة الكتب، وربما لجأ أكثر من طابع إلى تقطيع الكتل الخشبية إلى حروف منفصلة وإعادة ترتيبها للخروج بنص جديد؛ وربما كان أحد الطابعين يصنع كتلة خشبية لنص معين فانفرط منه النص وهو يقطعها ففكر في الحروف المفردة، يصنع كلًا منها على حدة ويجمعها معًا لنص معين ثم يفرقها بعد الطبع ليستخدمها في نص جديد، إننا لا نعرف على وجه الدقة كيف اخترعت الحروف

المتفرقة.. هل جاءت عمدًا أو محض مصادفة؟! المهم أنه في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ولد الاختراع الجديد (الطباعة بالحروف المتحركة أو المتفرقة).

ولكن من أية مادة صنعت الحروف المتفرقة الأولى هل من الخشب امتدادًا للكتل الخشبية، أم صنعت بداية من المعدن، وهل كان في ذهن المخترع الأوروبى تجارب وخبرات أسلافه في الصين وكوريا الذين صنعوها أيضًا من الخشب ومن الفخار؟ في هذا الصدد يذكر الدكتور شعبان خليفة أن الأدلة الموجودة حاليًا لا تقدم دليلًا شافيًا إلى أي اتجاه،[18] ومن المعروف أن الحروف المصنوعة وحدها من الخشب لا تلبث بعد شئ من الاستعمال أن تتمدد ثم تتقوس، وتنتفخ وربما تتكسر؛ وسبك المعادن لم يكن شيئًا جديدًا على البشرية بل هو معروف منذ قدماء المصريين وقد سك الرومان العملات المعدنية وكتبوا عليها، ومن ثم يكون افتراض أن الطابعين الأوائل قد جربوا الخشب ثم جربوا المعدن بعد ذلك، ويفترض أيضًا أن هذا المعدن كان النحاس أو الرصاص أو مزيجًا يقوي على ذلك الغرض.

لذلك يرى الدكتور شعبان خليفة أنه من الضروري أن ننظر إلى اختراع الطباعة بالحروف المتحركة على أنه ليس عملًا سهلًا ولا اكتشافًا فرديًا، ولكنه جاء نتيجة تجارب عديدة ووجهات نظر مختلفة، فقبل سبك الحروف لابد من الحصول على معدن رخو يمكن أن يذوب بسهولة، في نفس الوقت لا ينكمش عند التبريد، وبعد التبريد يجب أن يكون صلبًا يتحمل الضغط والكبس دون أن يتكسر أو ينثني، وكل هذه الصفات تتوفر في خليط من الصفيح، والرصاص، والأنتيمون وهذا المزيج من المعادن الثلاثة هو أحد الملامح المهمة في اختراع الطباعة؛ ومن ثم لا ينبغي أن نفكر في هذا الاختراع على أنه عمل فرد واحد، وفى نفس الوقت كان لابد من تجارب عديدة ومريرة لإنتاج نوع من الحبر يناسب الطباعة الجديدة؛ لأن الحبر البني الذي استُخدم في كتل الخشب كان لزجًا أكثر مما ينبغي للاستخدام مع الحروف المتحركة، ومن هنا صُنع نوع جديد من الحبر بتركيبة مختلفة وطباعة الكتل الخشبية لم تصلح إلا لطبع وجه واحد من الورقة ولم يكن يصلح معها استخدام الرقوق التي كانت تحتاج لضغط شديد حتى يَثْبُتْ الحبر عليها، وكان اختراع

آلة الطبع قد تمثل بكل تأكيد الطابعات أو لنقل الضاغطات الأخرى مثل عصارات النبيذ، ضاغطات الورق، ضاغطات الملابس وغيرها من الضاغطات التي كانت تستخدم في الحياة اليومية، ومن المشكلات الأخرى التي صادفت اختراع الطباعة، وتؤكد أنه لم يكن عملًا فرديًا، مشكلة كيف تضم الحروف الفردية معًا لتكوِّن كلمات، والكلمات معًا لتكوّن سطورًا متماسكة كيلا ينفرط عقدها تحت ضغط الكبس على آلة الطبع.

اختراع جوتنبرج

لم يحل الكتاب المطبوع بالقوالب الخشبية تلك المسألة التي كانت تفرض نفسها باستمرار وهي الإنتاج الواسع والصناعي للكتاب، فقد كان العمل البطيء والمضني لحفر الألواح الخشبية، وخاصة حين كان الأمر يتعلق بنص طويل، وعدم قدرة هذه الألواح على إعطاء عدد كبير من النسخ بسبب تضررها السريع من الأسباب التي أعاقت هذه التقنية في تلبية الطلب المتزايد والمتنامى على الكتب المطبوعة، ولذلك كان لابد من البحث عن حل آخر أبسط، وأسرع، وأرخص، وقد وجد هذا الحل أخيرًا يوهانس جوتنبرج (شكل 7).

ولد يوهانس جنسفلايش، الذي اتخذ لاحقًا لقب جوتنبرج Gutenberg نسبة إلى البيت الذي وُلد فيه، في مدينة ماينز سنة1397م، ولا نعرف شيئًا عن السنوات الأولى لحياته في ماينز لكن والده كان ينتمي إلى الشريحة الغنية للأشراف، بينما كانت والدته تنتمي إلى إحدى العائلات العادية في المدينة، كانت ماينز حين ولد جوتنبرج تمتلك كل الشروط لكي تكون مركزًا للنشاط التجارى الحي، فمن بين المهن التي تطورت في ماينز صناعة الذهب، والفضة، وصنع الأختام المعدنية، وسك النقود، ويعتقد هنا بأن جوتنبرج تعلم المهنة في ورش سبك المعادن التي ستفيده كثيرًا فيما بعد حين سيعمد إلى صب الحروف لمطبعته، في 1430م هاجر جوتنبرج إلى ستراسبورج وبدأ في ذلك الوقت العمل بشكل سري في اختراعه.

(شكل 7) جوتنبرج مخترع طريقة الطباعة عن طريق الأحرف المنفصلة.

ويبدو أن جوتنبرج كان منذ ذلك الوقت يملك تصورًا واضحًا عن طريقة أسهل وأرخص لنسخ النصوص وذلك بواسطة صنع الأحرف بشكل منفصل ثم وضعها أمام بعضها البعض للحصول على الأصل الذي يجب أن ينسخ. وكان من الواضح له أن هذه الحروف لا يمكن أن تصنع إلا من المعادن؛ لأن الحروف المعدنية فقط هي التي كانت قادرة على إعطاء عدد كبير من النسخ للكتاب الواحد.

الجدير بالملاحظة أن الحروف كانت تصنع من نرد من الصلب، وذلك بعد حفرها وقلبها لكي تبرز حجمه، وبعدها تُركب في شريحة من النحاس تعرف باسم المصفوفة، لتترك نقشًا غائرًا عليها، ثم توضع المصفوفة في قالب يستوعب عددًا لانهائي من الحروف من سبيكة من الرصاص، والقصدير، والأنتيمون، وتنصهر عند درجة حرارة منخفضة، وبعد استخراج هذه الحروف تجمع في سطور وصفحات (وفى مرحلة لاحقة في مجموعة

صفحات) لتتخذ شكلًا مُمَددًا، وبعد ملء هذه الحروف بالحبر وضغطها بطريقة دقيقة على أفرخ الورق، فإن النص المنفذ يخرج واضحًا على الورق.

لقد أصدر جوتنبرج أول مطبوعاته بعد مضي أربع سنوات، أي في عام 1454م /1455م، وصدر هذا العمل حينئذ في مجلدين بالحجم الكبير حيث طبع النص على عمودين وقد دعيت هذه التوراة «توراة الـ 42 سطرًا» (شكل 8)، وتحتفظ مكتبة الإسكندرية بنسخة فاكسميلى من إنجيل جوتنبرج، ويتميز المجلدان بزخارف الطبعات الأولى للكتب الأوروبية التي صدرت في هذه الفترة ولم يكن يُفصل بين الآيات بأرقام وعلامات كما هو الحال اليوم، والنص باللاتينية، ويقع المجلد الأول منه في 615 صفحة، بينما يقع المجلد الثاني في 319 صفحة، وقد صدر من هذه الطبعة 49 نسخة، منها ثلاث نسخ مفقودة، وبقية النسخ موزعة اليوم على المكتبات الكبرى بالعالم (المكتبة الوطنية بباريس، المتحف البريطاني، نيويورك).

وفى الواقع لم يختر جوتنبرج التوراة كأول كتاب يطبعه دون تخطيط مسبق، فقد كان هو وشريكه فوست يهتمان بالناحية المالية لهذا المشروع المكلف، ولذلك بدا لهما أن طباعة التوراة هي أضمن لهما من الناحية المالية، ولا نجد في «توراة الـ 42 سطرًا» اسم جوتنبرج كناشر للكتاب، ولكن يعتقد بأنه هو الذي نشر هذا الكتاب لأن الصفحة الأخير منه تتضمن تمجيدًا لمدينة ماينز بألمانيا على اعتبارها بلد الطباعة،[19] وفي سنة 1462م اندلعت في ماينز حرب أهلية دامية أصابت جوتنبرج بشكل مباشر، ففي تلك السنة هاجم جنود الأمير أدولف ماينز بشكل مفاجئ وقاموا فيها بمجزرة مروِّعة، وفى هذه الكارثة تضررت كثيرًا مطبعته أيضًا، فقد كانت هذه ضربة قاصمة لجوتنبرج العجوز حيث إنه لم يستطع أن يسترد ذاته بعدها، وحسب أحد المصادر المتأخرة فقد أمضي جوتنبرج سنواته الأخيرة في بؤس بعد أن فقد بصره، إلى أن تُوفى سنة 1468م، في ماينز على ما يبدو، إلا أننا نعرف عن وفاته في هذه السنة بالذات لأن شخصًا مجهولًا دَوَّن ذلك في أحد الكتب.[20]

كان جوتنبرج شخصًا يتمتع بإرادة قوية وحيوية كبيرة، ونظرًا لمعرفته بأن استغلال اختراعه لا يحتاج إلى ذكاء كبير فقد أبقى اختراعه في السر إلى أن طبع أول كتبه، وقد نجح جوتنبرج في ذلك، ولهذا فإن اسمه يرتبط بأهم ثورة حدثت في مجال التواصل منذ اكتشاف الورق، وكان نجاح جوتنبرج مستمدًا من قدرته على الجمع بين عدد من التقنيات الموجودة والسابقة عليه: الطباعة الخشبية، وصب الأحرف الذي تم وفقًا لنماذج خاصة بتقنيات سبك المعادن وهي تقنية راسخة ثم الحبر المصنوع من مادة زيتية القاعدة وتستخدمه في الرسم وأخيرًا الورق المصنوع من عجينة لباب الخرق البالية، والذي أصبح متاحًا في غرب أوروبا آنذاك منذ فترة وجيزة، ولكن استمرار اختراعه يمثل شيئًا لافتًا للأنظار ويعكس حجم إنجازه.

لقد غمر أوروبا طوفان من الكتب من جميع الأشكال والأحجام تتناول كل الموضوعات التي يتصورها العقل، وأمكن بفضل هذه الوسيلة تواصل حجم هائل من المعلومات بين الناس سواء على مستوى الأفراد أو الأنشطة الجماعية.[21]

(شكل 8) صفحة من توراة الـ 42 سطرًا.

انتشار الطباعة

عندما قام جنود الأمير أدولف بتشتيت سكان ماينز ومن بينهم أولئك الذين كانوا يعملون في الطباعة، لم يعد من الممكن إخفاء السر حيث إن الاختراع الجديد سرعان ما عُرف في العالم، وهكذا فقد أخذت الطباعة تنتشر بسرعة، أسرع بكثير مما كان يرغب به جوتنبرج، فقد انتشرت في ألمانيا أولًا ثم في البلدان الأوروبية الأخرى.

إن السرعة العجيبة التي انتشرت بها الطباعة في أوروبا تدل على أن جوتنبرج قد وجد في اللحظة المناسبة حلًا لإحدى المشكلات التي لم تعد تنتظر التأجيل بالنسبة إلى أوروبا في ذلك الوقت، وهي مشكلة الإنتاج الأسرع والأرخص للكتاب أي مشكلة الوسيلة الأكثر فعالية لنشر المعلومات وغيرها.

بدأت الطباعة مسيرتها الناجحة خارج ماينز في الوقت الذي كان فيه جوتنبرج لا يزال على قيد الحياة، فقد أسّس يوهانس منتلين حوالي 1460م مطبعة في ستراسبورج، حيث طبع في تلك السنة والسنة اللاحقة التوراة باللغة اللاتينية، بينما طبع سنة 1466م أول ترجمة ألمانية للتوراة، وفى ذلك الوقت أيضًا (حوالي 1460م) بدأ ألبرخت بجيستر نشاطه الطباعي، الذي يعتقد أنه من تلامذة جوتنبرج في مدينة بامبرج.

وقد دخل بجيستر في تاريخ الطباعة لسببين إذ إنه كان أول من طبع الكتب باللغة الألمانية الشعبية وأول من طبع الكتب المزينة بالرسوم، ومن بين الكتب التي أصدرها طبعتان من الكتاب المعروف «توراة الفقراء»، الأولى بالألمانية والأخرى باللاتينية.[22]

ثم انتقلت الطباعة إلى إيطاليا، واشتهرت فينيسيا بشكل خاص كمركز للكتاب المطبوع، حيث وجدت مهنة الطباعة في هذه المدينة تشجيعًا قويًّا ومناخًا ثقافيًّا، واقتصاديًّا وسياسيًّا مثاليًا لتطورها الكبير منذ سنة 1469م حيث أُسّست أول مطبعة، وازداد عدد المطابع باطراد حتى وصل إلى 150مطبعة في نهاية القرن، وقد طبع في هذه المطابع حتى ذلك الحين أربعة آلاف كتاب أي بنسبة أكثر من أية مدينة أخرى في أوروبا.

وبقيت فينيسيا تجذب إليها العاملين في الطباعة من ألمانيا، ولكن سرعان ما برع الإيطاليون في هذه المهنة أيضًا، وكان أشهر رجال الطباعة في فينيسيا، على مر العصور هو الدو مانوسيو (1449م – 1515م)، ولد مانوسيو في بازيانو وتعلم اليونانية في فيرارا ثم استقر في ميراندولا لدى الفيلسوف بيكو ديلاميراندولا، وفى عام 1488م قدم إلى فينيسيا حيث استفاد من معرفته لليونانية والتراث الكلاسيكى في إعداد مؤلفات الكتاب القدماء للطبع لحساب الناشرين.

اهتم مانوسيو بشكل خاص بطبع مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين اليونانيين، ومع أنه لم يكن أول من طبع الكتب باللغة اليونانية، إلا أنه حقق أعظم نجاح له في هذا المجال بالذات، وقد استعمل في هذه الطبعات حروفًا جديدة وأنيقة اشتهرت باسم الحروف «الإيطالية» أو حروف «ألدينا» Aledina نسبة إلى اسمه، وعلى الرغم من معارضة مانوسيو الشديدة فقد أخذ رجال الطباعة يستعملون هذه الحروف إذ إنه كان يريد أن يحتكرها لنفسه فقط.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مانوسيو أدخل تجديدًا آخر يتعلق بحجم الكتاب، فقد كان رجال الطباعة قبله يطبعون مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين بالحجم الكبير Folio بينما أخذ مانوسيو بطبع هذه المؤلفات بحجم أصغر.

ثم انتشر هذا الحجم لاحقًا باعتباره مناسبًا للحمل والقراءة، بينما كان الثمن الرخيص نسبيًا للمطبوعات صغيرة الحجم يضمن تغلغل الكتاب في الأسواق الأوروبية، وقد كانت الشارة الطباعية التي نجدها في كل مطبوعاته، وهي تمثل مرساة يلتف حولها دلفين، أفضل ضمان للنوعية الممتازة في كل أوروبا.

أما في باريس وفى فرنسا بشكل عام فقد انتشرت الطباعة بعد سنة 1470م. ويعُتقد بأن تأخر تأسيس المطابع هناك كان نتيجة للمعارضة القوية لنقابة باعة الكتب والنساخ التي كانت تحتكر في باريس إنتاج الكتب لحاجات الجامعات وللمهتمين بالكتاب بشكل عام، ثم قام أستاذان من السوربون باستدعاء ثلاثة من الألمان العاملين في الطباعة (ميكائيل فيريبورجر، وأولريخ جرينج، ومارتين كرانس) لكي يؤسسوا في هذه الجامعة وتحت حمايتها أول مطبعة في فرنسا، وخلال فترة قصيرة أصبحت باريس من أهم مراكز الطباعة في أوروبا. وسجل الإنتاج المطبعى في فرنسا قفزة كبيرة خلال القرن السادس عشر، حين أصبح رجال الطباعة يتمتعون بحماية خاصة ومساعدة مالية من حكام فرنسا، وخاصة من الملك فرانسوا الأول، بحيث أضحت لفرنسا مكانة خاصة في مجال الطباعة بأوروبا.

أما فيما يتعلق بالبلدان الأوروبية الأخرى فلم تظل كثيرًا في انتظار وصول هذه المهارة الجديدة لطبع الكتب بواسطة الحروف المتحركة، وهكذا فقد بدأ طبع الكتب في هولندا منذ 1473م وذلك في أولرهت وألوست.

كما نقل الألمان مهنة الطباعة إلى إسبانيا أيضًا خلال العقد السابع من القرن الخامس عشر، وسارع رجال الطباعة الألمان في الذهاب إلى إسبانيا حيث طبعوا الكثير من الكتب الدينية باللاتينية لأجل الكنيسة، التي كانوا يعملون تحت حمايتها وينشرون أكثر الكتب تلبية لحاجاتها، حيث أُسسَت أول مطبعة في برشلونة.

فى إنجلترا كان الإنجليزى وليم كاكستون، تاجر الصوف السابق، أول من اشتغل بهذه المهنة في بلاده بعد أن بقى حوالي ثلاثين سنة يعيش ويتاجر في بروج، إحدى مدن بلجيكا، حيث كان يجد الوقت أيضًا لترجمة رواية «فروسية» من الألمانية إلى لغته الإنجليزية، وقد أراد أن يطبع بنفسه هذه الرواية ولذلك فقد أقام خلال (1471م - 1472م) في مدينة كلن ليتعلم مهنة الطباعة هناك، وبعد سنة (1473م) أسس مطبعة في بروج حيث طبع في السنة اللاحقة كتاب «مجموعة تواريخ طروادة» الذي كان قد ترجمه بنفسه في وقت سابق، وفى هذه المطبعة طُبعت عدة كتب أخرى قبل أن يعود سنة 1476م إلى إنجلترا حاملًا معه هذه المطبعة، حيث وضعها في دير وستمنستر في لندن وطبع هناك سنة 1477م أول كتاب في إنجلترا «الأقوال المأثورة» أو «أقوال الفلاسفة».

كانت براغ أيضًا من المراكز الطباعية المهمة في أوروبا، وهي من أولى المدن الأوروبية التي أُسسَت فيها جامعة (1348م)، وحتى نهاية القرن الخامس عشر كان قد تم طبع 35 كتابًا في بلاد التشيك، وقد بدأ أيضًا السلاف الجنوبيون في طبع كتبهم الأولى قبل نهاية القرن الخامس عشر وقد طُبع أول كتاب باللغة الكرواتية سنة 1483م بعنوان «كتاب القداس حسب قانون البلاط الروماني».[23]

ومع نهاية القرن الخامس عشر كانت المطابع قد أُسسَت في كافة المراكز الثقافية الرئيسية في أوروبا، حيث ظهر في أقل من خمسين سنة عدد هائل من المطابع غطى مائتين وستين مدينة، حيث وجدت فيها ألف ومائة ورشة للطباعة.

حجم انتشار الطباعة في أوروبا خلال القرنين الخامس والسادس عشر

إن أفضل مؤشر للثورة التي أحدثتها الطباعة في مجالات العلوم، والثقافة، والمعرفة هو كمية الكتب التي طُبعت في العقود الأولى التي أعقبت اختراع جوتنبرج، فقد غطت كافة أرجاء أوروبا أعداد كبيرة من الكتب بحيث أصبح الكتاب في متناول كل من يعرف القراءة وكل من يرغب في تكوين مكتبة خاصة، وأضحت الكتب المحفوظة في الزوايا المخفية لمكتبات العصر الوسيط قريبة لأوسع شرائح المجتمع حيث رأت النور بعد التنقيب المتواصل عنها من قبل رجال الإحياء.[24]

وعلى الرغم من أن الكتب التي طبعت حتى نهاية القرن الخامس عشر تحولت إلى هدف لأبحاث كثيرة، نظرًا لأهميتها الكبيرة لدراسة ثقافة مختلف الشعوب الأوروبية بشكل عام، فإنه ليس من السهل تجميع المعطيات المتعلقة سواء بعدد الكتب التي صدرت أو بعدد النسخ التي طبعت في ذلك الوقت، وبعد فشل المحاولات الفردية في إحصاء الكتب التي طبعت في تلك الفترة اتخذت مبادرة دولية سنة 1904م لإحصاء كل الكتب المطبوعة في القرن الخامس عشر، حيث كانت التقديرات القديمة للخبراء تقول إن عدد العناوين التي طبعت يصل إلى 40 ألفًا، أما التقديرات الحديثة فتشير إلى ما بين 30 إلى 35 ألف عنوان، ولكنها ترفع من حجم الإنتاج الإجمالي ليصل إلى ما بين 15 إلى 20 مليون نسخة.

نشأة الطباعة العربية في أوروبا

المقصود بالطباعة العربية هي تلك الكتب التي تمت طباعتها وفقًا لتقنية الطباعة بالحروف المتحركة Movable Type وذلك بالأبجدية العربية كتابة ونطقًا، وقد مرت الطباعة العربية في أوروبا بمراحل عديدة عبر القرون الماضية، تحكمت فيها أهداف ودوافع مختلفة.[25]

وقد سبق ظهور الطباعة العربية في أوروبا ظهور هذا الفن وازدهاره في البلدان العربية والإسلامية، فلقد كانت هناك بعض المحاولات الطباعية في العالم الإسلامي على القوالب، حيث استخدم المسلمون فن الطباعة بالألواح الخشبية منذ العصر العباسي

الأول، فطبعوا على القماش والورق، وإن كان هذا النوع من الطباعة وتطوره لم ينتشر عند المسلمين لعدم اهتمامهم بهذه التقنية الميكانيكية الجديدة الطباعة لأسباب تتعلق بجماليات فن الطباعة وخاصة جماليات الخط العربي وفنونه، لذا يمكننا القول إن أوائل المطبوعات العربية التي ظهرت في أوروبا لم تكن من نتاج العرب أنفسهم، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن سبب إصدار الأوروبيين مطبوعات باللغة العربية؟

لقد ارتبط انتشار الطباعة العربية في أوروبا بصناعة الورق، الذي دخل أوروبا على أيدى العرب، ولكن السبب الرئيسى في انتعاش الطباعة العربية في أوروبا في القرون الوسطى هو انتشار التنصير بين أبناء العرب والمسلمين الذين ظلوا في بلاد الأندلس بعد خروج المسلمين منها، ونتيجة لذلك انتشرت علوم الاستشراق لدراسة كل ما يتعلق بحضارة الشرق.

بداية الطباعة العربية في أوروبا

بدأت طباعة الكتب العربية بحروف عربية في أوروبا متأخرة، ففي الوقت الذي كانت فيه الطباعة تتقدم بخطى سريعة خلال القرن السادس عشر، والمطابع تنشر الكتب باللغات الشرقية والغربية المختلفة، كانت البلاد العربية وبلاد الشرق بصفة عامة لا تزال في طور النسخ.[26]

ومع بداية طباعة الكتب العربية كان عدد النسخ التي طبعت في ذلك الوقت قليلًا جدًا، وذلك لقلة الطلب على الكتب العربية من جهة، ولصعوبة تقنية حفر الحروف العربية وسبكها لطبيعتها المتصلة من جهة أخرى، والثابت تاريخيًا أنها بدأت في أوروبا قبل الدول العربية، وعلى وجه التحديد في إيطاليا التي أدخلت الطباعة العربية مبكرًا لأسباب دينية، فقد كان غرضها الرئيسى طبع الكتابين «التوراة والإنجيل» ونشرهما بلغات شرقية، منها العربية ضمن جهودها للتبشير في بلاد المشرق العربي من جهة، ومن جهة أخرى كانت ترمى إلى توحيد الكنائس الشرقية، وكان ذلك في بداية القرن السادس عشر عندما انتقل عاملان من العمال الذين كانوا يعملون مع جوتنبرج لينضما إلى المطابع التي أسسها الكردينال دوق تسكانيا الكبير فرديناند دومديتشى.[27]

وكان معظم الكتب العربية التي طبعت في أوروبا في الفترة من 1509 - 1538 كتب دين مسيحى، وهي الكتب التي وضعها رجال الدين المسيحى من مستعمرين ومستشرقين على حد سواء، وتزامن ذلك مع انطلاقة مستعربين الحركة الاستشراقية بالإضافة إلى اهتمام ملوك روما بعلوم العرب كالملك ليون العاشر، كما كانت أوروبا العطشى إلى المعرفة مهتمة بالإنتاج الفكرى الإسلامي المسجل باللغة العربية، لاسيما أعمال الأطباء المسلمين (الرازى، ابن سينا، الزهراوى، ابن ماسويه،....الخ).[28]

البدايات الأولى

كانت هناك محاولة مبكرة للطباعة بالحروف العربية، تعد المحاولة الأولى في التاريخ، يقول عنها كميل أبو صوان: «ظهرت الحروف العربية للمرة الأولى في كتاب مطبوع في أوروبا في عام 1486م، وذلك عندما طبع راهب دومنيكى يدعى مارتان روث Marten Roth لدى الطابع بالحفر إرهاد دويفتش في ماينز القصة الشهيرة التي عنوانها «الرحلة والحج فيما وراء البحار إلى قبر السيد المسيح بمدينة القدس المقدسة»، من علم وتأليف برنارد دي برايدنباخ باللاتينية، وفى هذا الكتاب الأصيل تحفل القصة بمشاهد من حياة المدن، وهو ما كان في ذلك العصر ظاهرة جديدة».

ومن المعتقد أن إرهاد دويفتش قد رسم وحفر الألواح الخاصة بطبع هذا الكتاب والتي ظهرت عليها للمرة الأولى أبجدية عربية كاملة مطبوعة بالنقش على الخشب ومصحوبة بكتابتها باللاتينية، وبخريطة للقدس ورسم جميل محفور يمثل جماعة من اللبنانيين وصفوا بأنهم سوريون في كرمة وعلى رؤوسهم عمائم فاخرة وعنوانه الأصلي:

Dis Buch ist innhaltend die heiligen reysen gein inherusalemzu dem heiligen grab vnd furbasz zu der hochgeobten june-frowen vnd merreyn sant kat heryn

علمًا بأنه طُبع منه إحدى وأربعون طبعة.[29]

الطباعة العربية في إسبانيا

هناك إجماع من المؤرخين على أن أول كتاب عربي يطبع باللغة العربية في أوروبا قد طبع في إسبانيا ويرجع إلى قيام فرديناند وزوجته إيزابيلا الملكين الكاثوليكيين بخطة لتنصير

مسلمي الأندلس، بدأت بوضع كتابين لمساعدة المبشرين الذين سيقومون بالتبشير، أهمهما بعنوان «فن تعلم اللغة العربية بسهولة» أو «وسائل تعلم اللغة العربية ومعرفتها» وعنوانه الأصلي: «Arte para le geramente saber la lengua a raeiga» للباحث الإسباني بدرو دي ألكالا، وذلك في مدينة غرناطة، وقد طبع الكتاب بحروف عربية نقلت إلى اللاتينية بحروف قوطية، وكان ذلك عام 1505م، وكانت نسبة الحروف العربية في الكتاب لا تتجاوز 5%، وقد خصصت الإحدى والعشرون صفحة الأولى من كتاب الوسائل لقواعد اللغة، بينما خصصت السبع والعشرون التالية لصلوات كاثوليكية مترجمة إلى العربية، وإرشادات للاعتراف بالإسبانية والعربية، وذلك بقصد تسهيل مهمة المبشرين للتعامل مع المسلمين العاديين بلغتهم اليومية.[30] (شكل 9)

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يعد المحاولة الأولى للاهتمام باللغة العربية كعلم اللغة، بالإضافة إلى أهميته في تطور الطباعة العربية باستخدام حروف عربية ونقلها إلى الحروف اللاتينية، أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن معجم عربي بحروف قشتالية من وضع العالم خوانفاليرا.

الطباعة العربية في إيطاليا

تعد إيطاليا هي المهد الأول الذي نشأت فيه الطباعة العربية، فقد أسست فيها أول مطبعة تمتلك حروفًا عربية في العالم بإجماع المؤرخين والباحثين، ولذلك فقد سبقت إيطاليا الدول الأوروبية جميعًا في ذلك المضمار وكان لها قصب السبق في طباعة الكتب العربية ونشرها.

المطابع العربية في المدن الإيطالية

اهتمت روما منذ القرن 10هـ/16م بالنشر في مختلف اللغات الشرقية وخاصة العربية، وقد أسست الكنيسة عدة مطابع لتعمل تحت إشرافها، وكان الباباوات يعمدون إلى تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية المستقلة مع روما. ومن أهم المطابع العربية في إيطاليا:

1- «مطبعة اليسوعيين»، روما، 973 هـ/ 1566م:

حرص البابا Pie الرابع منذ سنة 1564م على توفير الحروف الشرقية لمطبعة معهد

روما (Tipographia del Collegio Romano) بهدف نشر نتائج أعمال المجمع الكنسي بترانت (Concile de Trente) (1554م- 1563م) في الشرق.[31] أما عن محتوى تلك المطبوعات، فنجد أنها كتب دينية، اثنان لتعليم المسيحية وواحد للدفاع عن المسيحية. كان الكتاب الأول من تأليف البابا Pie الرابع، وهو مطبوع بالعربية واللاتينية سنة 973هـ/1566م وعنوانه العربي: «اعتقاد الأمانة الأرثوذوكسية كنيسة رومية». أما الكتاب الثاني للأب برينو المطبوع سنه 988هـ/1580م وعنوانه: «التعليم المسيحي»، وقد عدَّد مؤلفه المبادئ الأساسية للعقيدة الكاثوليكية في شكل أسئلة وأجوبة وهي موجهة للمسيحيين الجدد، ثم جاء الكتاب الثالث ليفند تعاليم الإسلام، فقد نشره الأب إليانو سنة 973 هـ/1566م وعنوانه: «هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة».[32]

2- «مطبعة الميدتشي»، روما، 922 هـ/1584م:

عُرف عن الكاردينال فرديناند دي ميدتشي Ferdinand De Medicis ولعه

(شكل 9) «فن تعلم اللغة العربية بسهولة» طبع في عام 1505 م.

بالفنون والعلوم، وكان أيضًا راعيًا للفنانين والعلماء، ولمّا عهد إليه البابا غريغوريوريس الثالث عشر برعاية بطريركيات أنطاكية والإسكندرية، قرر تأسيس مطبعة للغات الشرقية بروما، لذلك حرص الكاردينال فرديناند على جعل مطبعته في مستوى عالٍ من حيث جودة وجمال المنشورات الشرقية، وأوكل إدارتها إلى المستشرق ريموندي Raimondi. أما الموضوعات التي تناولتها تلك المطبعة فجاءت متنوعة؛ فهناك كتابان مسيحيان: «الإنجيل المقدس»، وأربعة كتب نحوية منها «الأجرومية» لابن أجروم، و«كتاب التصريف» للشيخ الإمام، و«الكافية» لابن الحاجب وأيضًا كتاب في الطب لابن سينا عنوانه «كتاب القانون الثاني في الطب»، وكتاب في الجغرافيا للإدريسي وهو «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والآفاق»، وكتاب في الهندسة: «كتاب تحرير أصول الأوقليدس» ترجمة نصر الدين الطوسي. كما يعد «كتاب القانون الثاني في الطب» لابن سينا، من أبرز معالم الطباعة العربية في أوروبا، من حيث إخراجه وتقديمه[33] (شكل 10).

جاءت كل منشورات مطبعة الميدتشي باللغة العربية فقط، ما عدا كتاب «الإنجيل» الذي كان ثنائي اللغات (عربي- لاتيني). كان إخراجها غاية من الإبداع الفني، هذا إلى جانب أنها من حيث المحتوى لا تتضمن نصوصًا للتعليم أو الدفاع عن الدين المسيحي ما عدا «الإنجيل»، وهو أمر مغاير لرغبة البابا غريغوريس الثالث عشر الذي يرى في الطباعة العربية بروما وسيلة لنشر المذهب الكاثوليكي وإثارة الجدال ضد المسلمين. هكذا كانت مطبعة الميدتشي هي الوحيدة التي طبعت كتبًا عربية في روما، وذلك طيلة قرنين من الزمان.[34]

3- «مطبعة سافاري»، روما، 1022هـ/1613م:

تنسب المطبعة لمؤسسها سافاري دي براف (Savary De Bréves)، وهو رجل سياسة فرنسي أنشأ مطبعة للغات الشرقية سنة 1022هـ/ 1613م، لما كان سفيرًا لبلاده بروما، ثم نقلها إلى باريس بعد مضي ثلاث سنوات على ذلك. أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية فيما بين سنتي 1613 و1619م، وتتمثل في كتاب إنجيل، وكتابين للمزامير، وآخر لتعليم الدين المسيحي.[35]

ومن مفارقات القدر أن يكون الأوروبيون هم السباقون لطبع الكتب العربية بالأحرف المنفصلة منذ القرن 10 هـ/16م، ومن أهم الكتب التي طبعت في إيطاليا، نذكر منها:

- «صلاة السواعي Septem Horae Canonicae»، فانو 920هـ/ 1514م:

كتب النص كاملاً باللغة العربية، وطبع باللونين الأحمر والأسود. ولم تكن كلها في مواضعها والبعض منها كان ملطخًا بالحبر، يضم الكتاب مائة وثماني عشرة ورقة من النوع الجيد ويوجد في الورقة الأخيرة ذكر لتاريخ الطبع «وكان الفراغ من هذه السواعي المباركة نهار الثلاثاء ثاني عشر سبتمبر سنة ألف وخمسمائة وأربع عشرة من مولد سيدنا يسوع المسيح لذكره المجد الأمين، وهي ختم المعلم غريغوريوس بيت غريغوريوس من مدينة البندقية ختمت في مدينة فانو تحت حكم قداسة البابا لهون ماسك كرسي القديس ماربطرس الرسول بمدينة روما؛ من وجد فيه غلطة يصلحه يصلح الله شأنه بشفاعة السيد الأمين»،[36] وقد طبع هذا الكتاب لإقناع الكنيسة القبطية بالانضمام إلى كرسي روما.[37] (شكل 11)

- «كتاب المزامير المتعدد اللغات»، جنوة 921هـ/ 1516م

وهو ثاني الكتب المنشورة في إيطاليا، وقد نشر في جنوة سنة 921هـ/1516م وعنوانه: «مزامير عبراني يوناني عربي قصداني بترجمة لاتيني وتفسيرهم»، وهو مكتوب بخمس لغات ومن عمل القس أغسطينوس (1470م-1536م)، من مواليد جنوة، عالم في اللغات الشرقية، عهد إليه بمراجعة كل نصوص التوراة والإنجيل في اللغات الشرقية، ولكنه لم يتمكن إلا من نشر مجموعة من المزامير. وقد استعمل في الطبعات الحروف المغربية وهي كوفية مبسطة، كانت تستعمل آنذاك في المراسلات بين المغرب وجنوة.[38]

- كتاب «القرآن الكريم»، البندقية 944 هـ/1537- 1538م[39]

ذكر العديد من المصادر أن القرآن الكريم طبع لأول مرة باللغة العربية في البندقية في مطلع القرن 16م. من طرف باغانينو دي باغانينو وابنه ألسندرو وهما مطبعيان أصيلان من مدينة براسيا Brescia.

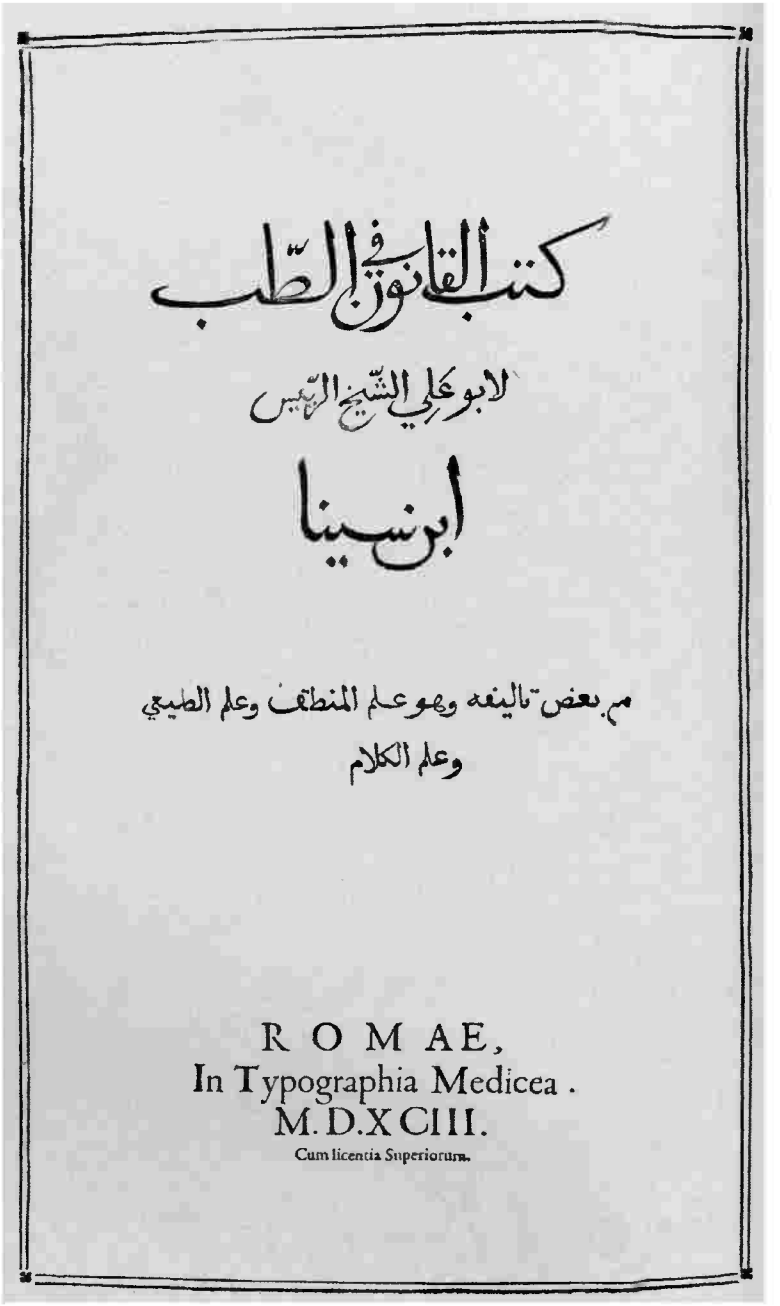

كتب القانون في الطب

لابو علي الشيخ الرئيس

ابن سينا

من بعض تاليفه وهو علم المنطق وعلم الطبيعي

وعلم الكلام

ROMAE,
In Typographia Medicea.
M.D.XCIII.
Cum licentia Superiorum.

(شكل 10) «كتاب القانون الثاني في الطب» لابن سينا طبع في عام 1593م.

أما الأسباب التي دفعت عائلة باغانيني إلى طبع هذا الكتاب، فتتمثل في أنها أرادت أن تبيع كتبًا شرقية في السوق العربية والتركية، خاصة أن هذه العائلة كانت لها علاقات تجارية مع الشرق من خلال صنع وترويج الورق، وكان إقدامها في بداية مشروعها على طبع القرآن الكريم يعد مجازفة نظرًا للجو المشحون بالصراعات بين المسلمين والمسيحيين، وهذا الأمر قد يكون وراء ظهور رواية إتلاف هذه الطبعة.[40] (شكلا 13/12)

الطباعة العربية في فرنسا

مطبعة سافاري

وهي المطبعة الوحيدة التي اهتمت بالنشر العربي في فرنسا، وقد تأسست سنة 1024هـ/1616م بباريس. وهذا على الرغم من وجود محاولة لطبع الكتب العربية كان قد قام بها المستشرق الفرنسي بوستل Postel.[41] لم تنشر المطبعة الشرقية بباريس سوى أربعة عشر كتابًا عربيًّا في القرن 11هـ/17م، وهي موزعة كالآتي: أربعة كتب مسيحية مقدسة، كتابان للتعريف بالمسيحية. أربعة كتب في النحو العربي، ثلاثة كتب في التاريخ، وكتاب واحد في الفلسفة. أما عن أهم كتاب صادر عن المطبعة فهو «الكتاب المقدس» المتعدد اللغات الذي أصدره لوجاي Lejay سنة 1645م، في سبع لغات هي العربية، والمسمارية، والكلدانية، واليونانية، والسريانية، واللاتينية، والعبرية. ويحتوي على عشرة مجلدات، ويعد تحفة المطبعة الشرقية بفرنسا.[42]

الطباعة العربية في هولندا

أنشئت ثلاث مطابع للغات الشرقية بهولندا في مدن ألتراخت، وأمستردام، وليدن. وكانت تعمل بإشراف جامعات تلك المدن. تميزت المطابع العربية بهولندا عن مثيلاتها بفرنسا وإيطاليا بمحتوى النشر العربي المتنوع؛ فالمستشرقون الهولنديون، خدموا فعلاً الإصلاح الديني ولكن مع ذلك اعتنوا كثيرًا بالمؤلفات العلمية للمسلمين.[43]

من أهم المطابع العربية في هولندا

1- مطبعة بلاتنان-رافلانج، ليدن، 1003هـ/ 1595م

هي أول مطبعة عربية بهولندا نشرت ثمانية كتب ثنائية اللغة أي بالعربية واللاتينية،

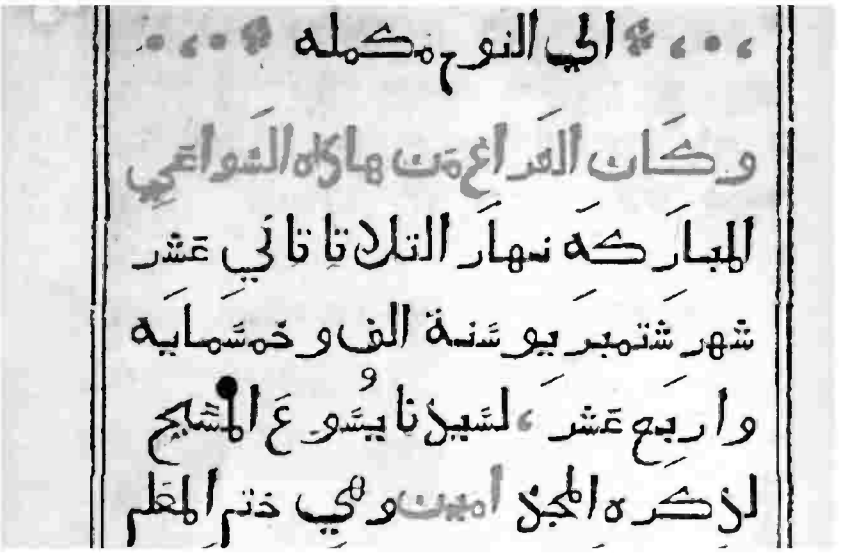

(شكل 11) نهاية كتاب صلاة السواعى، (920هـ/1514م)، المنشور في فانو في إيطاليا.

ومن بينها ثلاثة تهتم بالكتب المقدسة. أما البقية فتعالج موضوعات نحوية، وأدبية، وعربية. ويعد معجم رافلانج (Lexicon Arabicum) أول معجم نشر بالعربية في أوروبا، وذلك منذ سنة 1613م.[44]

2- مطبعة أربنيوس، ليدن، 1022هـ/1613م:

يعد توماس فان أرب المعروف باسم أربنيوس (1584م-1642م) من أشهر المستشرقين الهولنديين. وقد تعلم العربية بليدن واشتغل بتدريس اللغات الشرقية بجامعة المدينة منذ سنة 1613م. وأسس مطبعة في بيته الخاص، كان يشرف عليها بنفسه حتى مماته. وقد طبع أربنيوس ثلاثة عشر كتابًا لها محتويات متنوعة: أربعة كتب مقدسة، وسبعة كتب نحوية وأدبية، وكتابان في التاريخ.[45]

3- مطبعة إلزفير، ليدن، 1037/1628م (Ezevier):

حرصت جامعة ليدن بعد موت أربنيوس على المحافظة على الأحرف العربية وعملت على منع تسريبها إلى الأجانب حتى تبقى دومًا على ذمتها، فتقدم إسحاق الزفير Isaac Ezevier لشرائها سنة 1620م.[46]

الطباعة العربية في إنجلترا

تأخرت المطبعة العربية بإنجلترا في الظهور، إذ لم تنشأ مطبعة عربية إلا سنة 1637م. وقد نشطت في مركزين تابعين لجامعتي أكسفورد ولندن، وذلك طيلة القرن 11هـ/ 17م. وبالرغم من تقدم الإنجليز في ميدان النشر باللغات الأوروبية، إلا أنهم وجدوا صعوبات لتطوير الطباعة العربية على عكس ما توصل إليه الألمان والهولنديون. أما عن أسباب هذا «التأخير»، فيرجح أن الأسباب الفنية أسهمت في عرقلة انطلاقة المطبعة. ويبدو أن غياب حفارين قادرين على صب القوالب والطوابع للأحرف العربية دفع بأساتذة العربية إلى طبع كتبهم بالأحرف العبرانية.[47]

أنشئت مطبعة لندن العربية في بداية القرن السابع عشر، واعتنت بكتب التراث العربي، بقصد خدمة الدراسات الاستشراقية، كما أولت اهتمامًا خاصًا بكتب التراث العلمي.

من أبرز المطابع التي أقيمت في إنجلترا، مطبعة جامعة أكسفورد التي كانت ملحقة بجامعة أكسفورد، وقد أسسها وأشرف عليها العلامة والمستشرق البريطاني إدوارد بوكوك الذي اعتنى بطباعة كتب التاريخ والأدب العربي لتزويد الدارسين والباحثين بمراجع عربية تعينهم على الدراسة والبحث والتبشير، ومن أهم مطبوعاتها «تاريخ مختصر الدول» لابن العبرى عام 1663م.[48]

أما بالنسبة لمحتوى الكتب العربية بإنجلترا، فهو متنوع إذ من جملة واحد وعشرين كتابًا هناك ستة في الجغرافيا والتاريخ، وخمسة في اللغة العربية، وستة في الديانة واثنان في الفلسفة، وواحد في الهندسة وآخر في علم الفلك. ومن خصائص النشر العربي بإنجلترا احتواؤه على عدد مهم نسبيًا من كتب التاريخ والجغرافيا. من ناحية أخرى، نشر الإنجليز متنوعات تاريخية وجغرافية متأخرة تعود إلى القرنين الثالث والرابع عشر، حيث فضل العلماء المستعربون استعمال منتخبات لكتاب من العرب والمسيحيين لتعويض المجلدات العربية القديمة الضخمة والتي من النادر وجودها في أوروبا. أما بالنسبة للكتب الدينية فهي تحتوي على نصوص من التوراة ومن كتاب في التعليم المسيحي والطقوس ويعد كتاب التوراة المتعدد اللغات أهم كتاب ديني صدر في لندن وذلك في سنة 1657م.[49]

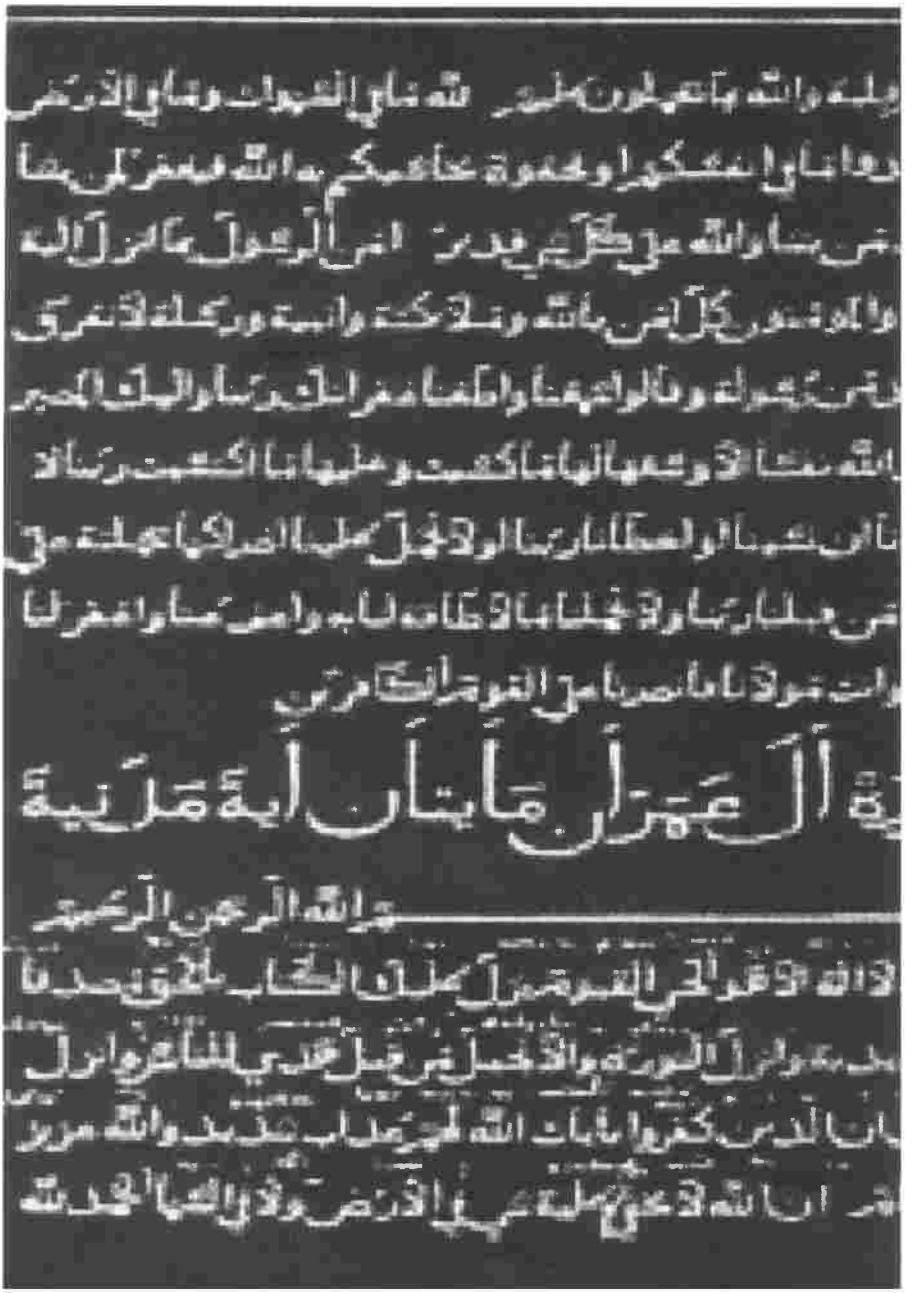

(شكل 12) صفحة من المصحف الشريف، البندقية 1537، نسخة نادرة.

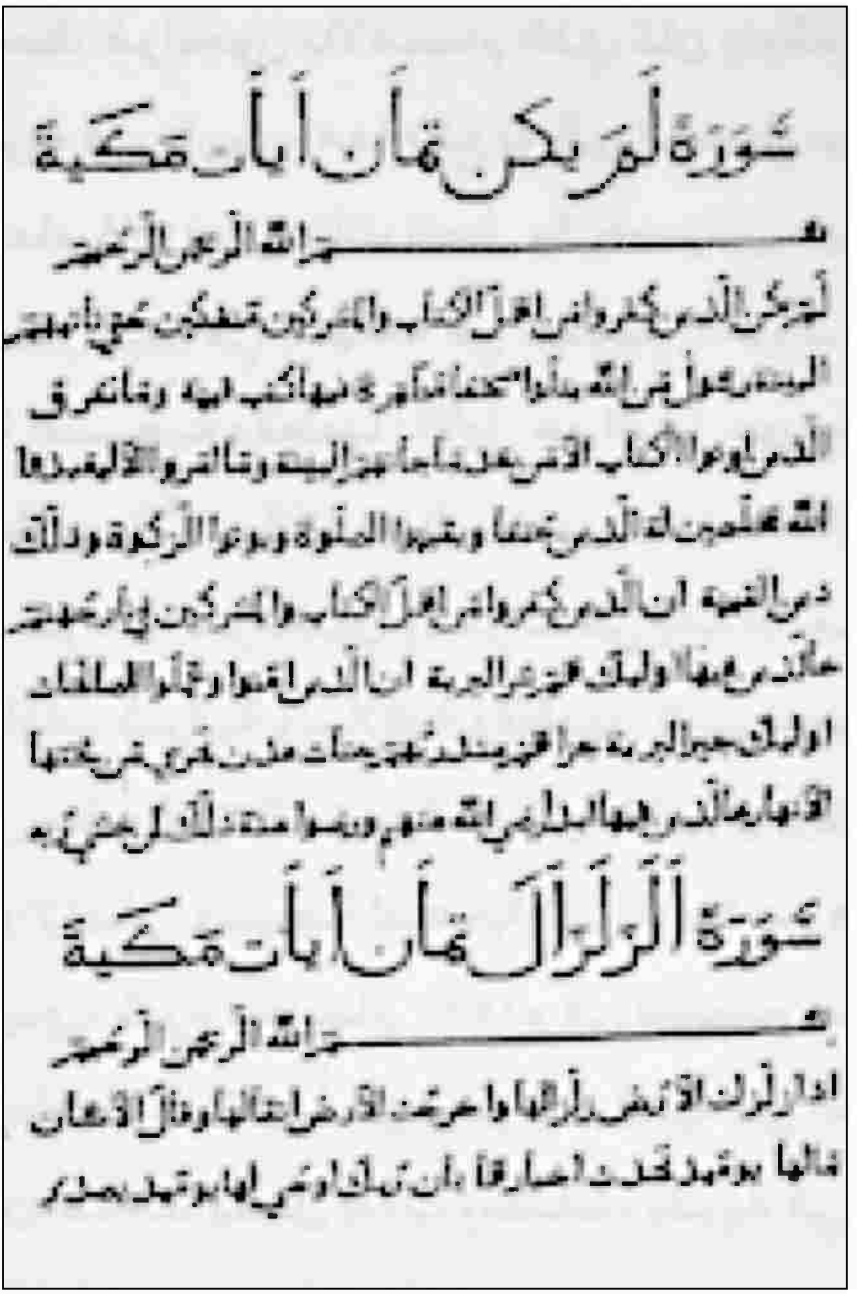

سورة لم يكن ثمان آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تاتيهم
البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق
الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة وما امروا الا ليعبدوا
الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويوتوا الزكوة وذلك
دين القيمة ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين في نار جهنم
خالدين فيها اولئك هم شر البرية ان الذين امنوا وعملوا الصلحت
اولئك هم خير البرية جزاهم عند ربهم جنت عدن تجري من تحتها
الانهار خالدين فيها ابدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه

سورة الزلزال ثمان آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها وقال الانسان
مالها يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها يومئذ يصدر

(شكل 13) صفحة من المصحف الشريف، البندقية 1537م.

الطباعة العربية في ألمانيا

عـرف النشر العـربـي تطـورًا كبيرًا في المدن الألمانية في أواخر القرن السادس عشر، إذ بلغت حصيلة الإنتاج تسعة وأربعين كتابًا موزعة على سبع عشرة مطبعة. وتعالج تلك المنشورات موضوعات لغوية، وأدبية، ودينية. ومن أبرز المنشورات نذكر كتاب «القرآن الكريم» الذي طبع لأول مرة بأكمله في هامبورج سنة 1106هـ/1694م بإشراف المستشرق البروتستانتي إبراهام هنكلمان (1652م- 1695م) (Abraham Hinckelman) وحتى ذلك التاريخ، كان المستعربون الألمان يكتفون بنشر بعض السور القرآنية مع إيضاحات عن مبادئ الإسلام. وقد نشر إبراهام هنكلمان القرآن بأكمله دون ترجمة لاتينية، ومع ذلك فقد بدأ الكتاب بمقدمة جدلية في ثمانين صفحة باللاتينية، ذكر فيها أنه لا ينوي نشر الدين الإسلامي في أوساط البروتستانتيين بل إن هدفه الوحيد هو معرفة العربية والإسلام، وما يوضح «بأنه من المفيد معرفة العربية ولكي نتقن هذه اللغة وجب معرفة القرآن». جاء نص القرآن في هذه الطبعة خمسمائة وستين صفحة، كل صفحة تتكون من سبعة عشر إلى تسعة عشر سطرًا، وطبعت بحروف مقطعة، وبحبر أسود ثخين، على ورق كاغد أوروبي، يعود إلى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وامتلأت بأخطاء كثيرة، بعضها ناتج عن تبديل حرف مكان حرف، وبعضها بسبب سقوط حرف من كلمة غيَّر المعنى المراد منها، وأخطاء أخرى تتعلق بأسماء السور، ويبدو أن عدم إتقان القائم على الطبعة للعربية، إضافة إلى محاولة تشويه النص القرآني الكريم وراء هذه الأخطاء.[50] (شكل 14)

من أشهر المطابع الألمانية مطبعة لايبزج ومن أشهر مطبوعاتها:

- كتاب «منتجات من شعر المتنبى» عام 1765م.
- «مقدمة الأدب للزمخشري» وهو قاموس عربي فارسى، صححه وتزستاين، وطبع عام 1850م.
- كتاب «كامل التواريخ» لابن الأثير الجزرى، في 14 جزءًا، طبع فيما بين عامى 1851م/1876م.[51]

وبذلك نجد أنه مع بزوغ شمس القرن التاسع عشر الميلادي بدأ ما يسمى بعصر التنوير الذي انقلبت فيه الأفكار وبدأ ينظر إلى الشرق على أنه شريك في عملية التطوير والتنوير وليس على أنه عدو للغرب، كما أخذوا يستفيدون من علومه ومعارفه.

ملاحظات على المطبوعات العربية الأولى في أوروبا

لم تنشأ مطابع متخصصة في النشر العربي فقط؛ ولكن هناك مطابع مهتمة بعدة لغات شرقية وأهمها العبرانية، واليونانية، والعربية، والسريانية، والتركية. وبما أن الأحرف العربية كانت نادرة فإنها اقترنت في عدة حالات باسم الناقش، أو الأستاذ، أو راعي الآداب الذي أشرف على إعدادها أكثر من اقترانها باسم المطبعة. وقد استعملت هذه الأحرف أحيانًا في أكثر من مطبعة، نظرًا لتنقل صاحبها من مدينة إلى أخرى، وهذا ما فعله سافاري دي براف، وهوتينجر، وغيرهما، على أن أغلب المطابع الشرقية كانت مرتبطة بمعاهد أو جامعات ويقوم فيها الأساتذة وعلماء الدين بدور الناشر العلمي للكتب العربية، وهذا لم يمنع أصحاب النفوذ الديني والدنيوي من التدخل المباشر في شؤونها خاصة بروما وباريس، وذلك بهدف إملاء التوجهات الرئيسية للنشر واختيار النصوص ومراقبتها عند الطبع.[52]

إنتاج الكتاب العربي في القرنين 10-11 هـ/ 16-17م

لقد نشرت المطابع العربية في أوروبا خلال القرنين السادس والسابع عشر مئة وواحدًا وتسعين كتابًا من بينها أربعة وعشرون كتابًا صادرة في القرن 10هـ/16م. جاء توزيع هذا الإنتاج غير متزن بين مختلف مراكز النشر، فهناك مركزان احتلا المقدمة، حيث تجاوزا في نشرهما الخمسة والثلاثين كتابًا وهما روما وليدن، واثنان آخران متوسطا الإنتاج أي في حدود الخمسة عشر كتابًا وهما باريس وأكسفورد. وهناك مدن أخرى طبعت أكثر من أربعة كتب، وهي أمستردام، ولندن، وبراسلو، أما بقية المطابع فلم تتوصل إلى نشر أكثر من كتاب أو اثنين ومن بينها نذكر البندقية، وميلانو، ولايبزج.

ظفرت المدن الإيطالية بالنصيب الأكبر في الإنتاج بفضل السبعين كتابًا التي أصدرتها خلال قرنين من الزمن، ثم تأتي في المرتبة الثانية المدن الهولندية التي أنتجت خمسة وأربعين كتابًا، ثم تأتي المدن الألمانية حيث أنتجت أربعين كتابًا، تليها المدن الإنجليزية التي

أنتجت واحدًا وعشرين كتابًا، وأخيرًا المدن الفرنسية وكل إنتاجها خمسة عشر كتابًا.

وإذا شهد القرن 10هـ/16م نشأة النشر العربي في أوروبا، فإن القرن 11هـ/17م، عرف ازدهار المطبعة العربية هناك إذ ازداد عدد المطابع التي نشرت في الجملة مئة وسبعة وستين كتابًا. ويصل معدل الإنتاج في كل عقد ستة عشر كتابًا، ولكن في بعض العقود وصل الإنتاج إلى خمسة وعشرين كتابًا، وذلك فيما بين السنوات 1611م-1620م، و1631م-1640م، و1651م-1660م، حيث بلغ النشر العربي ذروة نشاطه في النصف الأول من القرن السابع عشر، فقد تم طبع مائة وأربعة عشر كتابًا، وهو ما يؤكد وصول أغلب المطابع إلى قمة إنتاجها خاصة بفضل نشاط مراكز ليدن، وأكسفورد، وباريس، وروما. ومع بداية عام 1661م أخذ الإنتاج في التضاؤل وهذا بسبب توقف مطبعة سافاري بباريس، وتقلص نشاط إلزفير بليدن دون أن يتمكن الألمان من سد هذا الفراغ.[53]

الموضوعات التي تناولتها المطبوعات الأوروبية

من الصعب تقديم معلومات مدققة حول تصنيف الكتب حسب الموضوعات؛ لأن هناك كتبًا تعالج أكثر من موضوع في الوقت نفسه. ولكن يمكن أن نلاحظ أن أكثر من ثلث الإنتاج المطبعي يتعلق بكتب النحو وتعليم اللغة العربية، وكذلك ثلث آخر يعالج الديانة وخاصة المسيحية منها بما فيها النصوص المقدسة، ونصوص في التعليم والدفاع عن المسيحية، وكتب الطقوس والصلوات. أما البقية فهي موزعة بين العلوم الأساسية، مثل الطب، والفلك، والرياضيات، والعلوم الإنسانية مثل التاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، وقد طغت النزعة الدينية والجدلية، المنشورات الإيطالية والفرنسية وبدرجة أقل على الكتب الألمانية، والهولندية، والإنجليزية.[54]

إذا كان الكتاب العربي المطبوع بأوروبا قد أسهم في التعريف ببعض المؤلفات العلمية والأدبية للمسلمين في الأوساط الجامعية والغربية، فإنه قد أسهم أكثر في تغذية الصراع والجدال بين الكاثوليك والبروتستانت، والصراع بين الكاثوليك والمذاهب المسيحية الأخرى بالمشرق. وقد استأثر هذا المستوى الأخير بأكبر قسط من محتوى الكتب إذ سخرت

(شكل 14) صفحة عنوان المصحف الشريف الذي طبعه إبراهام هنكلمان في عام 1694م، وهو مليء بالأخطاء.

له كنيسة روما إمكانات ضخمة في نطاق خطتها المتمثلة في تحقيق «الاتحاد» مع الكنائس الشرقية المستقلة، والتصدي «للتحريف» الموجود في مذاهبها حسب رأيها.

إن الكتاب العربي المطبوع بأوروبا، قد صبغ الاستشراق العربي في القرنين 10 و11هـ/16- و17م صبغة دينية إذ طغت الموضوعات الدينية على محتواه بصفة عامة: فصدر العديد من كتب التعليم المسيحي، وأسفار من «الكتاب المقدس» وكتب «الجدال الديني والدفاع عن المسيحية».[55]